ذريني ... !

للأستاذ كامل محمود حبيب

[« ... ورأيت النار فلم أر منظراً كاليوم قط أفظع ، ورأيت أكثر أهلها النساء » . قيل : بم يا رسول الله ؟ قال : « بكفرهن » . قيل : أيكفرن بالله ؟ قال : « يكفرن العشير ، ويكفرن الاحسان . لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله ، ثم رأت منك شيئا ؛ قالت : ما رأيت منك خيراً قط »]

حديث شريف

ذريني أطير بين فلجات الأرض ومضلات السماء ، أستشف بهاء الحياة وجمالها !

ذريني أحطم الأغلال الثقال التي أرسف فيها ، لأفر من هذا السجن الأسود ، أتنسم روح الحياة والحرية !

ذريني أتحلل من هذا العبء الفادح ، فلقد آدني ، فما عدت أطيقه ! ...

ذريني أر الدنيا ، فلقد وجدت فقدها بين طيّات نفسي الوثّابة !

* * *

يا عجبا ! لقد جفّ قلبي وذوت سعادتي !

فهذا هو القمر يتألق في السماء ، والأرض ناعمة في سكون ، وأنا أرمقه من خلال همومي ، فلا أحس فيه الجمال ولا المتعة ...

وتنفّس الفجر ، فما لمست في نسماته الندية بَرْدَ الراحة ولا نشوة اللذة ...

وافترّ ثغر المشرق عن ابتسامة الشمس ، وأنا - وحدي - جاثم على نشز لا أستبشر لبسماتها ...

وإن الروض ليضحك ، فما أرى في ضحكاته سوى فنون من الكآبة والحزن ...

وإن الغدير ليعزف على قيثاره لحن الخلود الشجي ، فما تتطرب له نفسي ...

يا عجبا ! أفكل هذا لأنك — أيتها المرأة — إلى جانبي تنفثين فيّ روح الشر ؟

* * *

أيتها المرأة ، لطالما فوّقت إلى قلبي سهامك المراشة ، فاضطرم بالهوى وتلهب بالشوق . والآن ها هو ذا قد شاط بينها فما عاد قلباً ، ولكن مضغة لا تتحرك .

ولطالما سهرتُ أناجيك — وأنتِ في منأى عني — والآن هدّني الإعياء ؛ فذريني أقذف بأعبائي جانباً ، لأتوسّد ذراعي على الحصا ، في ظلال شجرة وارفة ، إلى جانب غدير ، تسكرني نسمات الربيع الهيفة ، فتستمتع نفسي بحنان الطبيعة وهدوء الكرى

ولطالما أوحى إليّ شيطاني أنك أنت فوق البشرية ، أنك بسمة الخالق على الأرض الحزينة ، فإذا ... ماذا رأيتُ الآن ؟

ولطالما استلهمتُ منك جمال الفن ، ورسمتك بريشة الخيال في أضعاف قلبي ، ثم لمستكِ ، فإذا ... ماذا وجدتُ ؟

* * *

أحقاً أنكِ أنتِ مادة الشاعر حين يتغنى بكلمات تتدفق النشوة واللذة من خلالها ؟

أحقاً أنكِ أنت ريشة المصور التي تعبث بالألوان فإذا هي حياة ؟

أحقاً أنكِ أنتِ لحن الموسيقي السماوي حين يُداعب أوتار قيثاره فتتحدث عن خلجات القلوب ؟

أحقاً أنكِ أنتِ لمعة الحياة إن شمل الكون ظلام الموت ؟

كلا .. كلا ! إنه هو خيال الرجل يُضفيه عليك — حيناً بعد حين — فيبعث فيك الكبرياء البغيضة ، ويسمو بك إلى آفاقه هو ، في حين أنك أنتِ ...

* * *

كان هذا خيالي حين استهوتني شياطينك فتمنيتُ ... ولما خبرتك فزعتُ عنك ، لا أطمع في حديث ، ولا أرنو إلى لقيا

ليت هذا الرجل يعلم ... ليته يعلم أنك قد صرتِ على الختل والخداع ، ودَرِبتِ على الشغب والكيدة ، وأحببتِ نفسك فشغلتك فأهمتك عن أن تكوني امرأة لرجل ، ونزت بك نزوات الكبرياء فذهبتِ تفزعين من أنوثتك الوضيعة ... ذهبت تفزعين منها لتكوني بدعاً في الرجال !

إني أفرق من جمالك وقبحك ، وأنزع من ابتساماتك

وعبراتك ، وأخاف رضاك وسُخطك ، وأجزع من عطفك ومقتك ، وأرهب صحبتك وفراقك ... فاذا ... ماذا بقى فيك أطمئن إليه ؟

هذه الدار الهادئة قد ملئت بك ضجة تحطم فىّ خواطرى الجميلة

وهذا القلب الشاب الندىّ قد استشعر الوهن حين مسحت بجمالك على شغافه

وهذه الحياة الوضاءة قد أظلمت حين أشرقتِ فى جنباتها

فذرينى ... ذرينى — أيتها المرأة — أفتش عن شباب قلبى !

* * *

ذرينى . . ذرينى ، يا شقاء القلب !

ولكن ، آه ، أين منك الخلاص ؟

إن شيطانك ما ينفتأ يلاحقنى ، فاذا أعجزه أن يسيطر علىّ فى يقظتى ، تبدّى لى ، بين أحلامى ، فى زينته الجذابة

وهذا الجمال الذى تتقزّز منه نفسى لأنى أنفذ إلى حقيقته القبيحة ، يتراءى لى — فى منامى — فى صفاء قطرة الندى على الزهرة البيضاء النضيرة ، فيأسرنى رويداً رويداً

وهذه النظرات التى أرى من خلالها الدّغل والشر والرياء جميعاً ، تنفذ إلى قلب أحلامى فتستخرج أضغان صدرى

وهذا القد المضطرب المتكسر يهفو إلىّ فيما يرى النائم حلواً يميس فى خطرات النسيم بين رؤى نومى

وهذه المرأة التى أنبذها ، تسعى إلىّ — دائماً — حين يأخذ بنفسى الكرى ... تسعى إلى لتضمنى إليها ، خشية أن أفلت منها ومن متاعبها فى وقت ما

ولكن ... ولكن ذرينى ، يا شقاء القلب !

* * *

آه ، لقد طرحتك ، أيتها المرأة ، فلا أحس بالعطف عليك ، وفررتُ منك فلا أحن إليك ، وصدفت عنك فلا أصبو إليك ، وطرت عنك فلا أسقط عليك ...

ولكن كيف ! وقلبى ما يزال يتصدع عن ثغرة يتوثب منها الهوى والحنان ، لأن روح الأبوة تتأجج فى أعماق قلبى فتسلبنى الهدوء والاستقرار

فأين أجد ابنى ؟ ... وهو جمال الحياة ، وبهجة القلب ، وفرحة النفس ، وزهرة الدار ، وشبابى الضّاع حين يوشك أن يَنْبَتّ حبل العمر ...

واحسرتا ! إننى لن أجده إلا فيك ... فيك أنت أيتها البغيضة !

ويا بنى ، لست فى غنى عنك ، فأنا أجد فى نأيك فراغ الحياة ، وظلام العيش ، ووحشة الطريق ...

فتعال . . . تعال إلى — يا بنّى — علّى أجد فيك صورة من طفولتى الجميلة المرحة ، أو أجد سعادتى المفقودة ... حين أجد ابنى !

نامل محمود حبيب

النّـــاى

هذه الأغنية منظومة على بحرين مختلفين رغبة فى تنويع مجرى النغم ، والبحر الأول وضعه الشاعر ، وأجزاؤه : فاعلاتن مفاعلتن (مرتين) ، وليكن اسمه : المنطاق . وأما البحر الثانى فمن البحور المعروفة .

جَنّبوا النّاىَ عن أُذُنى أُذُنى زُلْزِلَتْ طَرَبا
مِثْلَ قَلْبٍ تُحَدِّثُهُ سِرُّهُ السِّرْدُ فاضطَرَبا

أوتارُ الخاطرِ تَعْزِفُها أنّاتُ النايِ فَتَرْتَجِفُ
فَيَضِجُّ الجنبُ بِاغنيَةٍ حمراءَ قَرارَتُها التَّلَفُ

نَغَمٌ جاء يَفْتِكُ بى ذاعَ فى السّمعِ مُصطَخِبا
مِثْلَ دَمْعٍ يُغالِبُنى دارَ فى العَيْنِ مُلْتَهِبا

عَطَفاتُ النايِ مُصَعَّدَةً فى الليلِ صُلوعاً تَنقَصِفُ
صبَواتُ الرُّوحِ يُطوِّحُها فى اليومِ العابسِ مُلْتَهِفُ

القاهرة ، مايو ١٩٣٤ بشر فارسى